نسق التأليف في الهوامش في التراث العربي

م.م رحمة الله رهيف حسن
rahmaqaaid@gmail.com

أ.د رباب صالح حسن
Drrabab03@gmail.com

الملخص

الهامش من المصطلحات التي شاعت في الدراسات النقدية ما بعد الحداثة ومن مصطلحات الدراسات الثقافية . في هذه المداخلة تحاول الباحثتان ربط المصطلح ما بعد الحداثة بالتراث العربي القديم من خلال تتبع المصادر التراثية التي عرجت على الكتابة في الهامش وقد أسفرت هذه المداخلة على تعريف الهامش في اللغة والاصطلاح وتتبعه في الدراسات الثقافية ومن ثم التعريج على المؤلفات وقد تنوعت مادة الهامش بتنوع المصادر؛ فوجدت الباحثتان التأليف في الهامش الاجتماعي الطبقي، ووجدتا التأليف عن الصعاليك، واللصوص، والمغنيين، والبخلاء، والطفيليين، والحمقى، والمكدين وغيرهم كثيروالهامش الديني فوقفنا عند الخوارج وكذا بالنسبة لأنواع الهوامش من الطبقات الأخرى وستصل الباحثتان إلى نتائج تعرضانها في خاتمة الدراسة.وأهم نقطة يمكن أن تُقال هنا أن هذه التآليف قد حفظت لنا أخباراً مثيرة وقدمت معلومات مهمة وحفظتْ لنا نصوصاً أدبية إبداعية لم نكن لنتمكن من رصدها لولا تلك التآليف في منطقة بعيدة عن دائرة اهتمام السلطة السياسية وبالتالي هي بعيدة عن مركزية الاهتمام النقدية والاختيارات الأدبية والاستشهادات اللغوية وغير ذلك.

الكلمات المفتاحية : الهامش– التراث– البخلاء، نسق التأليف، النقد الثقافي

The format of writing in the footnotes in the Arab heritage

M.M. Rahmat allah, Hassan Prof. Dr. Rabab Saleh Hassan

Summary

Margin is one of the terms that have become common in postmodern critical studies and among the terms of cultural studies. In this intervention, the two researchers attempt to link the term postmodernism to the ancient Arab heritage by tracing the traditional sources that included writing in the margin. This intervention resulted in defining the margin in language and terminology and tracing it in cultural studies, and then tracing the literature. The subject of the margin has varied according to the diversity of the sources. The two researchers found writing in the social class margin, and they found writing about tramps, thieves, singers, stingy people, parasites, fools, scumbags and many others, and the religious margin, so we stopped at the Kharijites, as well as with regard to the types of margins from other classes. The two researchers will arrive at results that they will present in Conclusion of the study. The most important point that can be said here is that these compositions have preserved for us exciting news, provided important information, and preserved for us creative literary texts that we would not have been able to monitor had it not been for those compositions in an area far from the sphere of attention of political authority and therefore far from the centrality of critical interest and literary choices. Linguistic citations, etc.

Keywords :margin - heritage - stingy people, writing style, cultural criticism

المبحث الأول: متون التأليف ونظامها:

إن مصطلح ثنائية (المركز والهامش) هو مصطلح مابعد حداثي وتتداخل هذه الثنائية في مجالات مختلفة منها المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولا يمكن أن يكون هناك هامش بدون مركز ففي المجال السياسي يمثل المركز السلطة، والهامش هو الطبقة المعارضة وفي المجال الاقتصادي يمثل المركز طبقة الأغنياء، والهامش طبقة الفقراء أما في الدراسات الأدبية فإن كل أدب يتمرد على ماهو مألوف وسائد هو أدب هامشي؛ ففي العصر الجاهلي كان الأدب الذي يتصف بالجزالة والفخامة والفصاحة هو المركز والأدب اللين والسهل هو الأدب الهامشي لذلك ظهر سوق عكاظ وهو سوق كان يمثل منبراً تُلقى فيه القصائد ويجري التحكيم

وكذلك في العصر الاموي ظهرت القصائد الإسلامية التي اتسمت بألفاظ الصلاة والزهد وأما العصر العباسي فقد ظهر فيه الكثير من مظاهر التجديد وأبرزها ظهور اتجاهين هما مدرسة الطبع ومدرسة الصنعة (سمير خليل، بيروت، صفحة 279).

والمركز والهامش من أكثر المصطلحات تناولاً في النقد الثقافي والدراسات الثقافية وإثارة للجدل في الخطاب مابعد الكولونيالي، ومع ذلك فهو يتخذ موضعه في مركز أية محاولة لتعريف ما حدث بالنسبة لتمثيل الشعوب وعلاقتها كنتيجة للفترة الاستعمارية، وقد اعتمد التأسيس المتدرج للإمبراطورية على العلاقة الهرمية الثابتة بوجود المُستعمِر بوصفه الآخر بالنسبة للثقافة المُستعمَرة؛ فوجود فكرة الهمجي كان ممكناً فقط إذا كان هناك وجود لمفهوم المتحضر ليعارضها، وعلى هذا صارت أوروبا الإمبريالية تعرف بوصفها (المركز) داخل جغرافياً كانت على الأقل رمزية بقدر ما كانت حسيّة، وكل شيء وقع خارج ذلك المركز كان بالبداهة يقف عند هامش أو حافة الثقافة والسلطان والحضارة. والفكرة مثيرة للجدل لان افتراض المحاولات الرامية إلى وضع تعريف لنموذج (المركز/الهامش) تخلّد هذا النموذج عادة يستخدمون النموذج للإيحاء بأن تفكيك مثل هذه الثنائيات يؤدي وظائف أكثر من مجرد التأكيد على استقلالية الهامش.

ومابعد الحداثة تقوم على إلغاء المركزية والمركز دفاعاً عن التشتت والفوضى والتشعب والمصالحة بين المتخيل والواقع، وإعادة إدماج الوهم في الصيرورة وإحلال الاختلاف محل الهوية، والسطوح والثنيات مكان الأعماق والخنثوي محل الذكورة والمهمش محل المركز لذلك مابعد الحداثة هو جملة من الاستراتيجيات المتشابكة إذ هي تعميق لمسار الحداثة.

(لقد حظيت الفئات المهمشة في المجتمع العربي الإسلامي كالنساء والرقيق والمعارضين وأصحاب الحرف والباعة والشطار والعيارين والمتطفلين والمتسولين والبخلاء وغيرهم بحضور بارز ولافت في السرد العربي القديم ويبدو أن ذلك يعود لأسباب:

أولها: إن معظم مؤلفي السرد العربي القديم كانوا من العلماء الحاذقين، المهتمين بالظواهر الاجتماعية المختلفة وطبيعة تشكلها، كالجاحظ، والتوحيدي، والثعالبي، والتنوخي، والخطيب البغدادي وغيرهم فتناولوا أخبار الفئات الدنيا في مؤلفاتهم.

ثانياً: انفتاح لغة السرد مقارنة بالشعر وقيوده أكسب المؤلفين مقدرة أكبر على التعبير عن قضايا المجتمع المختلفة ومناقشتها وإبداء الآراء حولها (رحاب خضير ، عمان، الصفحات 26-27).

ثالثاً: أن السرد كان وسيلة للمفاكهة والتسلي لدى العامة الأمر الذي مكنه من رصد القضايا المسكوت عنها والمهملة في المجتمع، والعناية بالفئات الهامشية المنسية وتمثيل صوتها المقموع، بمعزل عن الرقابة المباشرة للسلطات)

وظهرت العديد من المؤلفات التي اهتمت بمجموعة من الهوامش ليكونوا مادة تأليفية في المصادر العربية التراثية مثل الإماء، والغرباء، والفقراء والذين امتهنوا الكدية، والصعاليك، وغيرهم. ومن هذه المؤلفات:

أولا:- طبقة البخلاء والطفيليين. (فلاح حسن شاكر، صفحة 25)

1- كتاب البخلاء للجاحظ (255هـ)

يعد كتاب البخلاء للجاحظ من أوائل المؤلفات التي اهتمت بالهوامش وهم فئة البخلاء في المجتمع التي يُنظر لها بعين الازدراء والاحتقار لأن العرب منذ الجاهلية يفتخرون بالكرم وإكرام الضيف حتى أنهم عندما يمدحون كانوا يصفون الممدوح بالكرم سواء كان هذا المدح بقصد التكسب أم بقصد التفاخر بهذه الصفة أم لإظهار امتلاك الممدوح لصفة الكرم. (شمس الدين بن خلكان، بيروت، الصفحات 470-471)

وفي البدء لابد من التعريف بالجاحظ:

(الجاحظ: ابو عثمان عَمْرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ، البصري العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن، له مقالة في أصول الدين وإليه تُنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة)

وفي الحديث عن هذه الفرقة يقولُ عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 249هـ) في كتابه الفَرقُ بين الفِرَقِ:-

(هؤلاء أتباع عمرو بن بحر الجاحظ وهم الذين اغتروا بحسن بيان الجاحظ في كتبه التي لها ترجمة تروق بل معنى واسم يهول، ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميْتهم إياه انساناً، فضلاً عن أن ينسبوا إليه إحساناً) (عبد القاهر بن طاهر، صفحة 116)

الذي يُهمنا هو تأليف الجاحظ في الهوامش. للجاحظ الكثير من المؤلفات في الهوامش مثل كتاب (حيل اللصوص) وكتاب (حيل المكدين) وكتاب (البخلاء) وكتاب (البُرصان والعرجان والعُميان والحُولان) والجاحظ بتأليفهِ لهذا العدد من الهوامش لاحساسه بأنه هامشي كأنه أراد أن ينصف هذه الطبقة فمن جملة أخباره التي تنقلها المصادر: (بن خلكان، مج 3، صفحة 471)

كان من فضائلهِ مُشوَّه الخَلق، وإنما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتوء، وكان يقال له أيضاً(الحدقي)،ويذكر أنه قال: ذُكرتُ للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة الآف درهم وصرفني، فخرجت من عندهِ فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الإنصراف إلى مدينة السلام، فعَرَضَ عليَّ الخروج معه والانحدار في حرّاقتهِ زكنا بسُرَّ من رأى، فركبنا في الحراقة فلما انتهينا إلى فم نهر القاطول نصب ستارة وامر بالغناء، فاندفعت عَوَّادة فغنت

نفهم من هذا الخبر وغيرها من الأخبار عن الجاحظ وعن جحوظ عينيه، وبشاعة منظرهِ، ورفض السلطة له بسبب منظره؛ وإنما تأليفه لهذه المؤلفات من هوامش المجتمع آنذاك كان ردة فعل لهذا الرفض أو هذه النظرة من المجتمع له فأراد تعويض النقص الذي كان يعتريه ويشعر به.

ونظراً لكثرة تأليف الجاحظ في الهوامش وسعة هذا النسق من التأليف لديه. سأقف عند كتاب (البخلاء)

البخلاء حقق نصه وعلق عليه (طه الحاجري) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية، الطبعة السابعة، دار المعارف– مصر، سلسلة ذخائر العرب

يقدم المحقق مقدمة عن الجاحظ بأنه كان إماماً من أئمة الكلام، وصاحب نجلة من نحلهم، وكان عالماً محيطاً بمعارف عصره، لايكاد يفوتهُ شيء، سواء في ذلك أصيلها ودخيلها، وماكان إلى الأخبار والأساطير، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، غابرها ومعاصرها، واسع الرواية، دقيق المعرفة. وكان فوق كل هذا كاتباً أديباً.

كان سبب تأليف الجاحظ للبخلاء للدفاع عن العرب الموصوفين بالكرم بإزاء الفرس الموصوفين بالبخل وأيضاً هناك دواعي أخرى للتأليف وهر أننا خرجنا من دائرة الاختيار اللغوي والتأليف الذي كان يمثل ذوق السلطة والتوجه إلى طبقة العامة واصبحت هي الطبقة المقدمة على اعتبار تطور نسق التأليف وانتقاله من الطبقة الحاكمة إلى الطبقة العامة. وكانت نزعة الجاحظ في كتاب البخلاء نزعة قومية والطبقة التي اختارها (طبقة البخلاء) هي طبقة جمعت بين السياسة والمجتمع. (الجاحظ، صفحة 116)

ويلاحظ في آثار الجاحظ سماحة في الكلام، واسترسالاً فيه، وبساطة في التعبير، وتصرفاً في المحاجة على حين إن طبيعته هذه البحوث الكلامية مما يبعث على التعسر والتكلف والالتواء، كما يلاحظ السيطرة الأدبية واضحة في الناحية العلمية فمثلاً كتاب الحيوان حشد الجاحظ فيه شتى المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصرهِ، وناقش فيه مناقشة سديدة. (مصدر سابق، صفحة 21)

وهناك ظاهرة مهمة تَصَدر المصدر في روايته الأدبية، وهي عدم وقوفه عند فحول الشعراء المعترف لهم والمجمع عليهم، إنما هناك دائماً النزعة الفنية الطليقة التي لا تكاد تعبأ بتلك الرسوم التقليدية، فهي تقف عند مواطن الفن اينما وجدت سواء كانت لشاعر فحل أم لشاعر مغمور وسواء كانت لشاعرٍ قديم أم لشاعرٍ معاصر وهو بهذا لم يكتف بتبريز الصفة الأدبية في مجالها، بل سيطرت على تلك النواحي الأخرى فوجهتها وطبعتها بطابعها. من هنا تتبين قيمة كتاب البخلاء بوصفه أعظم الآثار الصادرة من هذه النزعة القوية، وممثلة لهذه الصفة الغلّابة. (مصدر سابق، الصفحات 24–25)

يظهر من ذلك أن الجاحظ لديه حس الانتصار والإنصاف للهامش والمظلوم حتى بوقوفهِ مع الشاعر المغمور لكنه لم يغفل مواطن الفن التي كان يبحث عنها على عكس النقاد واللغويين الذي كان همهم أن يكون الشاهد هو لشاعر فحل معروف مع إغفال الجانب الفني في بعض الأحيان .الجاحظ بامتلاكه هذه الصفة الكلامية والبراعة في اصطناع الكلام وهو متأثّر بـ (ايفانوس الباروسي)الذي كان موهوباً في ابتداعه للمدائح والأهاجي غير المباشرة وهما صورتان من السخرية التي تقوم على الهجاء الذي يشبه أن يكون مديحاً، والمدح الذي يشبه أن يكون هجاء. واثبات تأثره بهؤلاء أمر عسير كل العسر لأنه لايمكن أن نقطع بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليوناني. لكن لاشك أن تفكيرهم الفلسفي قد أعدهم لأن يتصوروا صناعة البيان كما كان يتصورها اليونانيون. وتفسير مابين الجاحظ ومعلمي البيان اليونانيين من تشابه هو تفسير قائم على حقائق الأشياء الثابتة لا على فروض يعسر اثباتها ومرده الصفة الكلامية عند الجاحظ(وإذا كانت هذه الصفة الكلامية بكل ما تتضمنه من معنى، هي صاحبة التأثير الأول في هذا التوجيه الأدبي، كما يتمثل في الأدب الجاحظيّ، فأن من الطبيعي أن يكون لهذه الصفة مظاهرها في الأسلوب الذي يؤدي ذلك

الأدب. فمن ذلك إنه أدب عقلي يعتمد– إلى حد ما على الترتيب العقلي والتقسيم المنطقي وهذه الظاهرة بينة في كثير من كتابات الجاحظ الأدبية). (عقيلة بعيره، 2012، صفحة 3)

إن المتتبع لنسق العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي، ستصادفه قيمة الكرم، وبالمقابل تقابلها قيمة البخل، بما تحمله من دلالات نفسية، واجتماعية، وأخلاقية، واختلاف النظر إليها حسب البيئة والتوجه الفكري والثقافي. فلا يمكن إهمال صورة البخل التي حاول الأدباء منذ القدم توظيفها كأداة للوقوف على معالم بعض الظواهر الفردية والجماعية. (حامد طاهر، 2009، صفحة 201)

ظهرت موضوعة البخل في الحضارة الإسلامية في وقت كانت أملاك الدولة الإسلامية قد اتسعت وثروات أهلها قد تزايدت، وتسابق الأمراء وشخصيات المجتمع الراقي على إقامة الولائم وفي مثل هذه البيئة لاحظ الجاحظ تلك الظاهرة. وكانت أفضل طريقة لتناول هذه الظاهرة هي تلك التي استخدمها الجاحظ، وذلك لأن التصرفات العجيبة التي يقوم بها البخلاء لا يمكن تصور تناولها إلا في إطار ساخر قد يثير الضحك، ولكنه في الوقت نفسه يولد في نفوسهم شعور الاشمئزاز من البخل: دافعاً وسلوكاً.

الجاحظ لم يكن مبتدعاً للكتابة في موضوع البخلاء فابن النديم في الفهرست والجاحظ نفسه في كتاب البخلاء يشيران إلى أن له في هذا الموضوع اسلافاً مثل الأصمعي وأبي الحسن المدائني وأبي عبيدة. لكن الأمر مختلف بين الجاحظ وغيره. (الجاحظ، الصفحات 28–29)

وكانت أحاديث البخل والبخلاء تسير في طريقين، وفي أحد الطريقين يقوم دعاة الشعوبية فيردون على العرب فخرهم التقليدي بالكرم، ويقولون أكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل.

الطريق الثاني: يقوم دعاة الدولة القائمة، ومن وضعوا أنفسهم في خدمةِ السلطان، ومسايرتهِ في سبيله من العلماء وأهل الأدب. ومن هؤلاء من ينصر الدعوة العربية ويتعصب لها كالأصمعي، ومنهم من هو أميل إلى الشعوبية كالمدائني. وليست الدعوة للدولة ببعيدة عن الدعوة للشعوبية، فبينهما وشائج واصلة، وإن كانت قد اتخذت لوناً خاصاً بها. (مصدر سابق، صفحة 29)

وكانت الدولة العباسية تشعر منذ أن قامت على أنقاض الأمويين بالحاجة إلى التمكين لنفسها والتخلص من هذه الأشباح الأموية، ببث الدعوة ضد هؤلاء الذين كانوا ما يزالون يمثلون في كثير من الأذهان طائفة من المزايا، لابد للدولة من محاولة محقها واصطناع ضروب مختلفة من الدعاية إلى جانب ما كانت تصطنعه من اخذ الأمويين، وتحريم الإشادة بذكرهم، والإشادة بمآثر الدولة القائمة، وتمجيد العباس بن عبد المطلب وتفضيل هاشم على عبد شمس وغيرها من القضايا السياسية التي كانت لها الأثر الواضح في هذه الأخبار وتوجيه هذه الأخبار توجيهاً سياسياً.

من هنا يتبين أن قضية الكتابة عن البخلاء هي قضية سياسية قبل كل شيء فهي كانت لمصالح سياسية قبل أن تكون دعوة إلى الاهتمام بالبخلاء كهامش في المجتمع.

(ومهما يكن من أمر فأن أسلاف الجاحظ في الكتابة عن البخل والبخلاء وهاهو ذا أسلوبهم في تناول ذلك الموضوع. ومهما تكن حقيقة الحوافز إليه فقد كانت كتابتهم فيه أخبارية لا فنية، تعرض صوراً من الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة ولكنها مع ذلك كانت مما لفت الجاحظ إلى هذا الموضوع، ونبّه نزعته الفنية إلى اقتحامهِ والإبداعِ فيه، فكان هذا الكتاب : كتاب البخلاء).

ونرى في كتاب البخلاء مظهراً من مظاهر النزعة الأدبية القوية الحس السريعة الاستجابة التي يمتاز الجاحظ بها والتي كانت تطبع شخصيته بطابعها. فقد كانت الغاية من إثارة موضوع البخل والتحدث في نوادر البخلاء غاية قومية لا تمت إلى الأدب، أو غاية من غايات المعرفة المجردة لذلك كانت بعيدة عن تصوير الحياة الاجتماعية وتحليل البخل والحركات النفسية التي تداخله، وأخذ الجاحظ هذا الموضوع الذي كان أكبر مثارهُ الشهوات السياسية والعنصرية والذي كان جديراً أن يثير المشاقة والخصومة، فجعله موضوعاً أدبياً خالصاً، ومتعة فنية رائعة، فصار خالداً خلود النفس الإنسانية (مصدر سابق، صفحة 33).

لكننا نرى عدم خلو طرح موضوع البخلاء من الجانب الاجتماعي فهو فضلاً عن أنه كان لدواعٍ سياسية لكن هو اجتماعياً في الوقت ذاته فالجاحظ هو ابن المجتمع وهو طرح موضوع البخلاء بأسلوب السخرية مع الاسهاب الذي عُرِفَ به الجاحظ وجمع بين الأسلوب الاخباري والفني.

وكانت هناك ظاهرة اجتماعية مهمة وهي نشوء طبقة التجار الأثرياء في البصرة وبغداد وهي تقابل الطبقة البورجوازية وكانت تلك الطبقة في البصرة أعظم وهذه الطبقة هي أكثر الناس تقديراً للمال وأشدهم مغالاة به وحرصاً عليه والناظر في كتاب البخلاء يرى أن معظم الشخصيات التي رسمها الجاحظ فيه هم من هذه الطبقة.

ويلعب العامل النفسي دوراً مهماً في تصوير المهمّش ولقد اهتم الأدباء بتصوير الحالة النفسية وذكر تفاصيلها واقعاً أو تخيَيلا في مختلف النصوص نثراً وشعراً ويظهر ذلك على وجه الخصوص عند التركيز على الشخصيات وسماتها، ودوافعها ، وانفعالاتها، وافكارها، وهكذا كان صنيع الجاحظ الذي تعمّق في رسم شخصية البخيل في كتابهِ البخلاء حيث عالج نفسيتهِ وما يجول بها (علياء هنيدة، 2018، صفحة 24).

أما الأسلوب التأليفي لكتاب البخلاء فيتلخص فيما وصفه به مؤلفهِ:

(نوادر البخلاء واحتجاج الاشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهزل مستراحاً والراحة جماماً)

لم تكن سخرية الجاحظ في طرحه للصورة الهامشية للبخلاء هي سخرية عارية فاقعة ولم يبالغ مبالغة صارخة كما هو الشأن في أكثر سخرية العامة فلم يلجأ الجاحظ إلى هذا الاسلوب وكيف لا؟ وهو رجل الفن الصناع الدقيق الذهن الجيد السبك وإنما هي السخرية التي تقصد إلى الأذواق المترفة والمدارك المرهفة.

يقول الجاحظ في مفتتح كتابه: (الجاظ ، صفحة 1)

(تولاك الله بحفظهِ وأعانك على شكرهِ ووفقك لطاعتهِ وجعلك من الفائزين برحمتهِ. ذكرتَ– حفظك الله– أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل، وأنك سردت بل كل خلل وحصنت به كل عوّرة، وتقدمتَ– بما أفادك من لطائف الخُدع– ونبَّهك عليه من غرائب الحيل)

في هذا النص إشارة إلى إنه كتبَ مؤلفاً في الهوامش قبل كتاب البخلاء وهو كتاب حيل اللصوص. أيضاً يذكر الجانب الساخر في كتاب البخلاء ويذكر مُلح بعض الشخصيات ويشير إلى أن الهزل هو مستراحاً من كَدِّ الجد: (مصدر سابق، صفحة 56)

(لأجعل الهزلَ مستراحاً والراحة جماماً، فإن للجدّ كدّاً يمنع من معاودتهِ ولابدَّ لمن التمس نفعه من مراجعتهِ وذكرتُ ملح الحرامي واحتجاج الكندي، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي، وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم)

إن الجاحظ سجل لنا في كتابهِ ظاهرة البخل بمعظم جوانبها، وأن هذه الجوانب قد وردت في صور نابضة بالحياة والحركة فنحن أمام حوادث تقع، وشخصيات رئيسة تفعل وتتكلم، وشخصيات ثانوية ترصد وتعلق كذلك لا نفتقد المكان ولا الزمان ولا حتى الديكور الذي تجري فيه الحوادث ... والأسماء التي توحى إلينا بوثاقة الروايات وتضفي عليها مسحة تاريخية تشدنا إلى الواقع وتقربنا من أحداثه وشخصياته.

تُعرف حكاية البخلاء على أنها وحدة سردية مستقلة بذاتها تُجسم فعلاً أو حادثاً ما يبين أن شخصاً أو أشخاصاً أو جماعة أو طبقة من الناس سواء لهم صفة الصفة التاريخية أم لا، يتصفون بصفة البخل. ولقد تم وضع الحكايات بناءً معايير أدبية محضة وليست في حاجة إلى أن تتطابق مع كل التقسيمات أو العلامات التي وردت في النص فكانت الوحدات السردية تختلف في أطوالها.

لذلك فأن حكايات البخلاء هي مجموعة من الوحدات الأدبية التي برغم اختلافها من حيث الشكل أو التنظيم إلا أنها جميعاً تعتمد على الأحداث التي تنوعت إلا أنها تمثل صفة البخل أو طبيعة الشخص البخيل.

وبعدها يبدأ بسرد صفات البخل والبخلاء وافتتح كتابه برسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه في البخل، بعدها ينقل أخبار أهل خراسان يقول:

(نبدأ باهل خُراسان لإكثار الناس في أهل خُراسان، ونخص أهل مرو بقدر ماخصوا به)

وينقل خبراً ساخراً بأسلوب طريف لمروزي من أهل خُراسان :

(قال أصحابنا: يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس طال جلوسُه: تغديتَ اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغّديتَ لغدّيتك بغداء طيّب، وإن قال: لا قال: لو كنتَ تغدّيت لسقيتُك خمسة أقداح. فلا يصيرُ في يدهِ على الوجهين قليل ولا كثير) (حامد طاهر ، صفحة 202)

وينقل حكاية أخرى من أعاجيب أهل مرو وذلك:

(أن رجلاً من أهل كان لايزال يحجُّ ويتَّجر، وينزل على رجلٍ من أهل العراق فيكرِمهُ ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقيّ: ليتَ أني قد رأيتك بمرو حتى أكافئك، لقديم إحسانك، وما تجدّد لي من البِرّ في كل قَدمة قال :فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجةٌ في تلك الناحية، فكان مما هوَّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب، مكان المرْزوَيّ هنالك فلمَّا قَدِمَ مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقَلَنسُوته وكسائه، ليحطَّ رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أُنسه. فلمَّا وجده قاعداً في أصحابهِ، أكبَّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقيُّ في نفسهِ: لعل إنكاره إياي لمكان القناع، فرمى بقناعهِ، وابتدأ مُساءَلته، فكان له أنكر. فقال: لعلّه أن يكون إنما أتيَ من قِبَل العمامة، فنزعها ثم انتسب، وجدَّد مُساءَلته، فوجده أشدَّ ماكان إنكاراً. قال: فلعله إنما أتى من قبل القلنسُوة. وعَلِمَ المرزويُّ أنه لم يبقَ شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجتَ من جِلدك لم أعرفْك. ترجمة هذا الكلام بالفارسية: (أكراز بوست بارون بيائي نشناستم). (فدوى مالطي، الصفحات 20-21)

إن الشيء الجوهري فيها هو أن الرجل العراقيّ يدخل إلى منزل المروزي، ولا يهم ما يفعله المروزي لا يتعرف عليه ومن الواضح أن المروزي لديه التزام اجتماعي بدعوة من صديقه إلى منزلهِ واعطائهِ ما يستطيع لكن المروزي بفشله في التعرف على صديقهِ، ينكر عليه عملية الضيافة وإن كان الشيء الاكثر هنا هو أنه لا يرفض الضيافة صراحة بل ويلجأ إلى الخداع والحيلة. والكرم هو من أهم صفات العربي وكان يتفاخر بهذه الصفة. (الجاحظ، صفحة 17)

وبعدها ينقل قصة أهل البصرة من المسجديين قصة زبيدة بن حميدة وقصة ليلى الناعطية، وقصة وليد القرشي، وقصة أبي مازن، قصة أحمد بن خلف، حديث خالد بن يزيد، قصة خالد بن عبد الله القسري واحتجاجه لخالد المهزول، وقصة الحارثي وقصة الكندي، وقصة تمام بن جعفر، وقصة ابن العقدي، وقصة الأصمعي، ورسالة أبي العاص بن عبد الوهاب وبعدها ينقل أطراف من علم العرب في الطعام ومن حديث القِرى عند العرب ومن دلائل الكرم عند العرب.

وهذه الموضوعات الثلاثة ختم الجاحظ بها كتابه البخلاء وكأنه ردة فعل وتثبيتاً للغاية السياسية والقومية وبيان فضائل العرب وكرمهم والنبل من الشعوبية وبخلهم. وفي جانب أخر تسليط الضوء على شريحة البخلاء هذا العنصر الهامشي في المجتمع آنذاك.

وحكايات الجاحظ تدور حول حيل أو وسائل معينة ويمكن أن تُقسم هذه الحيل إلى قسمين ففي الحكايات التي تدور حول الشيء تظهر الحيل في الاستخدام غير العادي للشيء بينما في الحكايات الخاصة بالضيافة، يضطر المضيف للجوء إلى حيلة ما لكي يكسر السلسلة دون إبداء الرفض التام. وإن وجود الحكايات الخاصة بالشيء وكثرة عددها يبدو موحياً بأن مفهوم (البخل) لا يجب أن يُفهم على أنه مجرد أنانية بل يجب أن يتسع ليشمل مايسمى (المبالغة في عملية الاقتصاد) (الجاحظ، صفحة 17).

لم يلتزم الجاحظ في كتابه منهج الفصول وإنما رُتب على أبواب تحمل عنوان الرسائل.

إن المتتبع لنسق العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي، ستصادفه قيمة الكرم، وبالمقابل وتقابلها قيمة البخل، بما تحمله من دلالات نفسية واجتماعية وأخلاقية واختلاف النظر إليها حسب البيئة والتوجه الفكري والثقافي. فلا يمكن إهمال صورة البخل التي حاول الأدباء منذ القدم توظيفها كأداة للوقوف على معالم بعض الظاهر الفردية والجماعية.

2- كتاب البخلاء للخطيب البغدادي (ت 463هـ):

الكتاب الثاني الذي يحمل عنوان البخلاء هو (البخلاء) للخطيب البغدادي وهو مُؤلفٌ وقف ايضاً عند هذه الفئة؛ فئة البخلاء ونقل أخبارهم ونوادرهم. (فدوى مالطي، صفحة 26)

الخطيب البغدادي:(الإمام الأوحد، العلامة المُفتي، الحافظ الناقد، مُحدّث الوقت أبو بكر؛ أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغداديّ، صاحب التصانيف، وخاتمةُ الحُفّاظ. ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثِ مئةٍ. وكان أبوه أبو الحسن خطيباً بقرية درزيجان... ارتحل إلى البصرة وهو ابنُ عشرين سنة وإلى نيسابور وهو ابنُ ثلاث وعشرين سنة، وإلى الشام وهو كهل وإلى مكة وغير ذلك)

وكان الخطيب البغدادي يمتلك خلفية دينية وعلمية واسعة فكان آخر الحُفّاظ كما ينقل أكثر من يترجمون له:(قال الحافظ أبو سعيد السمعاني: كان الخطيب مَهيباً وقوراً، ثقة مُتحرياً حُجة، حَسَنَ الخط، كثير الضبطِ، فصيحاً، خُتِمَ به الحُفّاظ، رحل إلى الشام حاجّاً، ولقي بصور أبا عبد الله القُضاعي، وقرأ (الصحيح) في خمسة أيام على كريمة المروزية). (فدوى مالطي 28-29)

(وللخطيب البغدادي الكثير من المؤلفات حتى إنه أُختلفَ في عددها: قال أبو سعد السمعاني: للخطيب ستةٌ وخمسون مصنفاً: (التاريخ) مئة جزء وستة أجزاء، (شرف اصحاب الحديث) ثلاثة أجزاء، (الجامع) خمسة عشر جزءاً، (الكفاية) ثلاثة عشر جزءاً، (السابق واللاحق) عشرة أجزاء، (المتفق والمفترق) ثمانية عشر جزءاً، (المكمل في المهمل) ستة أجزاء، (غنية المقتبس في تمييز الملتبس)، (من وافقت كُنيته اسم أبيه)، (الاسماء المبهمة) مجلد، ...) وغيرها وكتاب تاريخ بغداد من أهم مؤلفات الخطيب البغدادي وأشهرها ومن أهم الكتب التي تناولت مدينة بغداد وتاريخها وعُلامها وفي تأليفه رواية ينقلها الذهبي:

(قال الحافظ بن عساكر: سمعتُ الحسينَ بن محمد يحكي، عن ابن خيرون أو غيره، أن الخطيبَ ذكرَ أنه لما حجَ شَرِبَ من ماء زمزم ثلاث شَرْبات، وسأل الله ثلاث حاجات، أن يُحَدَّث بـ(تاريخ بغداد) بها، وأن يُمْلِيَ الحديث بجامع المنصور، وأن يُدْفَنَ عند بشر الحافي. فقضيت له الثلاث). (عقيلة بعيره، صفحة 3)

أما كتاب البخلاء فهو كتاب في أخبار البخلاء ونوادرهم لكنه اختلف عن بخلاء الجاحظ بأمورٍ ذكرها د.أحمد مطلوب في المقدمة التي قدمها لكتاب البخلاء : إن الخطيب البغدادي نحا في كتابه نحواً جديداً يختلف عن بخلاء الجاحظ فبينما كانت النزعة الفنية تسيطر على بخلاء الجاحظ نجد النزعة التاريخية وطريقة الرواية تسود كتاب الخطيب؛ وعلة ذلك أن الجاحظ كان أديباً موهوباً، وكان الخطيب البغدادي مؤرخاً ومحدثاً فطغى أسلوب المؤرخين والمحدثين على بخلائهِ. (محمد نعيم العرسوسي ، 1405-1984، الصفحات 370-371)

واختلف أيضاً عن بخلاء الجاحظ وهو أن الجاحظ لم يقسم كتابه إلى أجزاء وإنما عرض القصص والأخبار عرضاً أدبياً فيه المتعة الفنية وإثارة الشعور الأدبي، ولكن البغدادي يقسم كتابه إلى ستة أجزاء حسب التجزئة القديمة المتعارفة بين رجال الحديث وخص كل جزء بأخبار معينة وهو من هنا يبوب كتابه ويضم الأشباه والنظائر وهذه خطوة جديدة في العرض والتأليف.

ويذكر أحمد مطلوب الاختلاف في عدد أجزاء بخلاء البغدادي إذ بعض الباحثين إنه ثلاثة أجزاء يقول الأستاذ يوسف العش: (البخلاء في ثلاثة أجزاء كما عده المالكي، وفي أربعة كما عده شبهة، وفي مجلد كما عده تذكرة) ولا يتفق هذا مع حقيقة الكتاب ويذكر د. أحمد مطلوب في المقدمة إن الكتاب محفوظ في المتحف البريطاني بلندن في ستة أجزاء صغيرة ضمت إلى بعضها فكونت مجلداً واحداً ويبدأ الجزء الاول بعبارة : الجزء الأول من كتاب البخلاء، تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. رواية أبي منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون إجازة عنه .

وتأليف البخلاء للخطيب البغدادي لا يخلو من دوافع سياسية واجتماعية وردة فعل على الشعوبية كما كانت دوافع تأليف بخلاء الجاحظ وإن هذه العوامل هي التي أدت إلى ظهور هكذا نوع من التأليف في طبقات هامشية من المجتمع.

– كتاب البخلاء للخطيب البغدادي بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي وأحمد ناجي القيسي. ساعد المجمع العلمي العراقي على نشرهِ وطبع بمطبعة العاني ببغداد، الطبعة الأولى، عام 1384هـ- 1964م. (مصدر سابق، الصفحات 289-290)

الكتاب عبارة عن ستة أجزاء:

بدأ الجزء الأول :بعبارة (الجزء الأول من كتاب البخلاء تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي لن ثابت الخطيب البغدادي رواية أبي منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون، إجازة عنه. رواية أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد الدارقَزْيَ، سماعاً عنه).

وبعدها يبدأ بسرد الروايات عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في البخل ووصفه وعيبه وذمه والتحذير منه والاستعاذة بالله منه. وكذلك وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) السخاء والبخل، وضَرَبَ النبي مثل البخيل، وإن طعام البخيل داء،....

أما الجزء الثاني: افتتح بـ (البخل والشح) وبعدها يذكر المأثور عن المتقدمين في ذم البخل والباخلين، وحكمة لشيخ أدرك الناس، حكمة لأعرابي، وبيتان في الجود والبخل، واسحاق الموصلي، وأبيات في السؤال، وذم البخيل وإسقاط شهادته. (الخطيب البغدادي، 1384-1964، صفحة 10)

أما الجزء الثالث: بدأ الجزء الثالث بخبر الحارثي والمنصور، الحارثي وأشعب، جار الأعمش، صحن القديد، الجن والخبز، مطبخه قفر، البخيل والحمال. وغيرها من الاخبار.

أما الجزء الرابع: بدأ الخطيب البغدادي هذا الجزء بـ الثراء يبيد، ودجاج أبي عثمان، ابن مارية والكبش، جود أبي الصقر، أبيات لأبي العتاهية. وغيرها

أما الجزء الخامس: فقد بدأ هذا الجزء بـ فداء الأكلة، ذبح الفراريج، الهجاء بالبخل على الطعام، رغيف سعيد، خبر الباهلي، النوح على الفلس،... وغيرها من الأخبار التي ترسم صورة البخيل في ذلك العصر. (البغدادي، صفحة 10)

أما الجزء السادس: الذي خُتِمَ به هذا المجلد فبدأ بأقوال في البخل، أبخل أهل خُراسان أهل طوس، دلوه على الخان، أهل واسط، أهل القسامل، الصبي والشاة، ... وغيرها من الأخبار.

وأسلوب البغدادي في بخلائه كان يهتم بالسند أيما اهتمام ويعود ذلك إلى أنه كان محدثاً وراوية للحديث، وكذلك يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأيضاً هذا يَرْجِعُ إلى خلفيته الدينية فهو حافظ للقرآن. وأسلوبه بعيد عن الفنية والأدبية بل هو أقرب إلى التاريخية وهذا مرده إلى أنه مؤرخ. (المصدر السابق، الصفحات 110-111)

ورتب الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي وأحمد ناجي القيسي الفهارس وجعلوا فهرساً للموضوعات، وفهرساً للآيات القرآنية، وفهرساً للأحاديث النبوية، وفهرساً للأعلام، وفهرس الأماكن، وفهرس القوافي، لذلك خرج الكتاب بحلةٍ جميلة متكاملة.

3- كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، للخطيب البغدادي (ت 463هـ)

بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، الجَفّان والجابي للطباعة والنشر.

بعد أن تناول الخطيب البغدادي البخلاء ألف كتاباً أخر في الهوامش وهو كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم وقد ساق في هذا الكتاب الكثير من الأخبار عن هذه الطبقة المهمشة يقول:

(شغلنا الله وإياك بطاعَتِهِ، وتولّاك بحفظهِ وحياطتِهِ؛ كُنْتَ ذكرتَ لي أَنَّهُ انْتَهَى إليْكَ حكايةُ خبَر طُفيْلي جَرَتْ له محاورةٌ مع نصر بن علي الجَهْضَمِيّ وأنَّك احبَبْتَ الوقوفَ عليه بلفظهِ، وآثرتَ النظر فيه على وجههِ؛ فأعلمْتُكَ وقوعَ الخبر اليَّ بإسنادهِ، ولم يتَّسعِ الوقتُ لسياقِهِ وايرادِهِ، من حكايات الطُّفَيْلِيّين وأخبارهم، ونوادر كلامهم وأشعارهم ...)

في هذه المقدمة يبين الدافع إلى جمع أخبار الطفيليين وهو خبر الطفيلي مع نصر بن علي الجهضمي وايضاً يبين منهجه في نقل الخبر.

وكتاب التطفيل هو واحد من أهم النصوص التراثية العربية، فهو يمثل جزءاً مما خلفه السلف من آثار علمية وأدبية وفنية وهو أحد مؤلفات الخطيب البغدادي التي تتسم بالجودة والنفاسة وتستحق أن يطلق عليها أعمالاً أو آثاراً. إنّ عناية الباحثين القدامى بهذه الظاهرة الاجتماعية على هذا النحو متأت من إحساسهم بأهمية دراستها، إذ أسهمت في نشوء مادة أدبية شغلت مساحة واسعة من كتب الأدب ووضعت تحت عنوانات كثيرة ولكنها تدور على محور واحد هو التطفيل.

(وقد جمعتُ لك في هذا الكتاب مِنْ ذِكْر التطفيل ومعناه، وأوَّل مَنْ نُسِبَ إليه وعُرِفَ به، وبيانَ حُكْمِه، وحمدهِ وذمّه، وأخبار أهله المَوْسومين به؛ مايَسْتَرْوحُ قلب العالم إليه من ثِقَلِ الجِدّ، ويتروّح خاطره بالنظر فيه من الدَّرسِ) . (ابوبكر احمد، صفحة 43)

في هذا النص يبين منهجه في التأليف حيث جمع أخبار الطفيليين ومن عُرِفَ به والموسومين به وبيان حكمه وحمده وذمه وهنا تظهر شخصية الخطيب البغدادي الدينية فهو راوية للحديث النبوي هذا من جهة ومن جهة أخرى يبين إنه ألف هذا الكتاب من باب الترويح لذهن القرئ من كد الدرس والجد وفي هذا ينقل قول الإمام علي (عليه السلام)

(إنّ هذه القلوبَ تملّ كما تَمَلُّ الأبدانُ، فابتغوا لها طُرَفَ الحِكْمة)

وبدأ الكتاب في معنى التطفّل في اللغة وأوَّل من نُسِبَ إليه:

(قرأتُ على الحسن ابن أبي القاسم، عن أبي الفَرَج علي بن الحسين بن محمد الاصبهاني ... أخبرنا الأصمعيُّ قال: الطُّفَيْليُّ الداخل على القوم من غير أن يُدْعَى، مأخوذٌ من الطَّفَلِ، وهو إقبال اللَّيلْ على النَّهار بظلمتهِ. وأرادوا أنَّ أمْرَه يُظْلِم على القوم، فلا يدرون من دَعاهُ، ولا كيف دخل إليهم) . (محمد عبد الكاظم، 2014، صفحة 16)

والطُّفَيْليَ كما يتبين هو الذي يدخل وليمة لم يُدعَ إليها وهو منسوب إلى طفيل، وهو رجل من أهل الكوفة كان يأتي إلى الولائم من غير أن يُدْعى إليها وكان يسمى طُفَيْلُ الأعراس والعرائس وكان يُسمى أيضاً الرَّائِش والوَارِشَ الذي يدخل على القوم في شرابهم ولم يُدْعَ إليه :الواغل.

ثم تكلم عن ذكرِ ما كان يُسمى به الطُّفَيْليُّ في الجاهلية (هذا آخر حديث علي بن حرب، وزاد سَعْدَان: ... قال عبدالله : كنا ندعو الإمّعَةَ في الجاهلية الرجل يُدعى إلى الطَّعام فيذهب بالآخر معه لم يُدْعَ)

وقد فصّل في التطفيل في الجاهلية وعهد الرسول ومابعدها فجعل:

باب فيمن دُعي إلى الطعام فأرادَ أن يَسْتَصْحِبَ معه غيره وأن السُنَّة استئذان الداعي له في ذلك.

ذكر مَنْ طَفَلَ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الصحابة.

باب في التغليظ على مَنْ أتى طَعَاماً لَمْ يَدْعَ إليه .

وباب في مَنْ ذَمَ التَّطفيلَ وأصحابه وهجا به غيره وأعابَه.

وفي هذا الباب استشهد بكثير من الأبيات الشعرية التي تذم التطفيل.

وباب فيمن حَمِدَ التَّطفيلَ وأصبحَّ لأهله وذَكرهُم بالجميلِ، وباب في ذِكْرِ مَن طَفَلَ من الأكابر والأَشْرافِ واهلِ العلم والأدبِ. وأيضاً يذكر مَنْ عَرّضَ بالتطفيلِ وَلم يُصرِّحْ. وكذلك تكلم عن صنِف من الطفيليين تحت عنوان مَنْ أحَبَّ تطفيل غيْرِه عَليْه فَسَهَّلَ له السبيل إليْه.

وأخبار مَنْ صَرَفَ إلى التَّطفيل هِمَّتهَ وُجَعَلَ ذلك صِناعَتَه وحرْفَتَه.

وكذلك ينقلُ أخبارُ من مُنِعَ عَن الدُّخول فاحتالَ وتَسبَّب إلى الوُصُولِ.

وينقل أيضاً وَصَايا الطُّفَيليين.

وينقل من أشعار الطفيليين.

ثانياً: طبقة الحمقى والمجانين:-

1- كتاب عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (406هـ) :

والكتاب الرابع في أخبار الهوامش هو مؤلف عقلاء المجانين للنيسابوري والنسخة التي رجعتُ لها بتحقيق الدكتور عمر الأسعد.

والنيسابوري هو(أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب النيسابوري من رجال القرن الرابع الهجري، ومصنف هذا الكتاب مفسّر وإمام في القراءات؛ والقراءات تعتدّ باللغة ذاتها وسيلة إلى التفسير، كما تعتد بالرواية وطرقها، وبالمعاني ووجوهها، وبعلوم اللغة الأخرى. فهو بهذه الصفة قد قوّم كتابه وليس للمفسر ان يتصدى لذلك بغير هذا كله مما يقتضيه الإسناد والرواية من علم تاريخ الرجال والسّير وطرق الجرح والتعديل والحفظ والرواية وابو القاسم كان مضطلعاً بهذا كله) (الخطيب البغدادي، صفحة 44)

من هنا فأن النيسابوري هو من أوائل المفسرين ويقول السيوطي في ترجمته للنيسابوريّ:

(الحسن بن محمد بن حبيب بن ايوب أبو القاسم النَّيسابُوري الواعظ المفسر، إمام عصره في معاني القرآن وعلومهِ، مصنف (التفسير) المشهور، وكان أديباً نحوياً، عارفاً بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه بنَيْسَابور العلمُ الكثير، وسارت تصانيفه الحِسان في الآفاق، وكان استاذ الجماعة قال السَّمْعَاني: كان أولاً كرَّاميَّ المذهب، ثم تحول شافعياً ... وصنف في القراءات، والتفسير، والآداب، و(عقلاء المجانين)).

من هم الكرامية؟

(الكرامية بخراسان ثلاثة أصناف: حقائقية، وطرائقية، وإسحاقية) وهذه الفرق الثلاث لا يكفر بعضها بعضاً وإن كفرها سائر الفرق؛ وزعيمها المعروف محمد بن كرَّام كان مطروداً من سجستان إلى غرجستان، وكان أتباعه في وقته أوغاد شورمين، وأفشين وورد نيسابور في زمان ولاية محمد بن طاهر ابن عبد الله بن طاهر وتبعه على بدعته من أهل سوادج نيسابور...ومن ضلالاتهم :أن ابن كرَّام دعا أتباعه إلى تجسيم معبوده، وزعم أنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التي منها يلاقي عرشه، وهذا شبيه بقول الثنوية: إن معبودهم الذي سموه نوراً يتناهى من الجهة التي تلاقى الظلام وإن لم يتناه من خمس جهات... وغيرها من الضلالات). (المصدر السابق، صفحة 46)

من ترجمة السيوطي للنيسابوري يتبين أنه يمتلك خلفية دينية فهو مفسر ولغوي ونحوي وأديب في الوقت ذاته فهو موسوعي إلا أن الصفة الدينية تغلب عليه لا سيما وإنه ترك تفسيراً مشهوراً للقرآن الكريم.

كتاب (عُقلاء المجانين) كتاب يحمل موضوعاً طريفاً، والكتب في تراثنا في هذا الجانب قليلة، وهي تكون لمؤلفين معدودين مثل الجاحظ المعروف بالدعابة وإثارة السخرية وإيراد الطرفة وإما أبو القاسم مصنف العقلاء فهو زاهد صوفي ألف في هذا الموضوع للإتعاظ والاعتبار والتدبر.

والكتاب فيه أشياء تجعله متفرداً، منها أخباره وآثاره ، رواها المؤلف بسندهِ، وإن فيه أشعاراً جياداً متخيرة بذوق المؤلف الشعري، وأن فيه لغة عالية كان للمؤلف عناية بها في اشتغاله بالتفسير وعلوم القرآن. ويمتاز الكتاب أيضاً بحسن اختيار مضمونه الأدبي، وعالج الموضوع على نحو منهجي أصيل يخبر به النظر في عناوين أبواب الكتاب وفصوله. (المصدر السابق، الصفحات 46-47)

من هنا يتبين إن أخبار الهوامش مثل المجانين واللصوص والغرباء والحمقى كانت محط اهتمام اللغويين أمثال ابن الجوزي، والنيسابوري، والمبّرد وغيرهم من علماء اللغة والمفسرين فانيسابوري صاحب تفسير مشهور وذلك لان اللغويين كانوا يبحثون عن الشاهد اللغوي ومحل الشاهد وجد عند هؤلاء الهوامش.

في مقدمة الكتاب ينقل النيسابوري بعد إن حَمِدَ الله وأثنى عليه جملة من الأخبار عن السلامة والعافية حتى يصل إلى غرضهِ المنشود وهو الجنون. وكيف أن كفار قريش نعتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنون والسحر.

ويقول النيسابوري في سبب تصنيف هذا الكتاب:

(ولقد سألني بعض أصحابي عوداً عن بدء أن أصنف كتاباً في ذكر عقلاء المجانين وأوصافهم وأخبارهم، وكنت أتعامس عنه إلى أن تمادى به السؤال، فلم أجد بداً من إسعافهِ بطَلِبَتهِ، وإجابتهِ إلى بغيتهِ، تحرياً لرضاه وتوخياً لهواه. وكنت في حداثة سني سمعت كتباً في هذا الباب مثل كتاب الجاحظ، وكتاب ابن أبي الدنيا... فوقع كل كتاب منها في جزءٍ أو ما يقارب جزءاً، فتتبعتها وتعقبتها وضممت إليها قرائنها وعزوتها إلى أصحابها وألفت هذا الكتاب على غير سمت تلك الكتب وهو كتاب يكفي الناظر فيه التردادَ وتصفح الكتب، وأرجو أني لم أُسبق إلى مثله والله المُوفق). (الخطيب البغدادي، صفحة 49)

يريد أنه ألف في هذا الجانب بعد طلب من أصحابه ويبين أن كتابه تميز عن الكتب التي ألفت بهذا الجانب بوحدة الموضوع وهذا الأمر لم يكن موجوداً عند المؤلفين أمثال الجاحظ وكذلك أن مُؤلفه يكفي القارئ التردد وتصفح الكتب الأخرى.

وبدأ بتعريف أصل الجنون في اللغة:

(الجنون في اللغة الاستتار؛ تقول العرب: جنّ الشّيء يجن جنوناً إذا استتر، وأجنّه غيره إجناناً إذا ستره، قال لبيد:

حتى إذا ألقت يداً في كافرٍ وأجنَّ عوراتِ الثغور ظلامها

يعني الشمس ألقت يداً في ليل مظلم وستر الظلامُ الفجاج والطرق)

ويفصل كثيراً في الجنون والمجنون وينتهي إلى أنه يعني الاستتار يقول:

(وكل هذا يؤول إلى معنى الاستتار. المجنون المستور العقل، والفعل منه جُنَّ يُجَنّ جنوناً فهو مجنون. وأجنّه الله فهو مجنون) .

ويذكر النيسابوري للمجنون أسماء كثيرة ويبين الفروق اللغوية الدقيقة لكل معنى منها (الأحمق، والمعتوه، والأخرق، والمائق، والممسوس) وغيرها ويفصل في الأمثال المضروبة في الحمق والحمقى، وما يوصف بالحمق من غير الناس مثل الضبع والعقعق، وأسماء جنون الدوابّ، وضروب المجانين ومن ضروب المجانين العاشق الذي تيّمه الحب وأجنهُ. وبعدها فصل القول في حروف الجد والعقل ودولة الحمق والجهل،(أخبرنا محمد قال: أخبرنا الحسن قال: سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازي يقول... سمعت أبا يوسف القاضي يقول: الناس ثلاثة : مجنون ونصف مجنون وعاقل. فأما المجنون فانت منه في راحة، وأما نصف المجنون فأنت منه في تعب، وأما العاقل فقد كفيت مؤنته)وبعدها تكلم عن اجتناب الأحمق وصحبته، ويسوق في هذا الباب الكثير من الأخبار التي تنهى عن صحبة الأحمق، ويقف طويلاً عند أخبار عقلاء المجانين وأوصافهم ومنهم (أويس القرني رحمه الله، مجنون بني عامر، أبو عطاء سعيد المجنون، أبو وهيب بهلول بن عمرو بن المغيرة المجنون وغيرهم كثيرون، وبعدها تحدث عن مجانين الأعراب، المجانين من النساء، مجانين لا يبينون ولا تُعرف أسماؤهم.

وهذا الباب يمثل صلب موضوع الكتاب وقد فصل فيه كثيراً وإن إحاطة المؤلف بموضوعه وإيراد الأخبار والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار أغنت الكتاب وأعطت لهذا الكتاب مكانة مهمة في تدوين أخبار هذه الشريحة التي مثلت مكوناً

مهماً من مكونات المجتمع العباسي آنذاك ولعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية حيث إن عقلاء المجانين اتخذوا من الجنون مهنة وحرفة للحماية من السلطة ولتضليل السلطة في ذلك الوقت. (لابي قاسم الحسن، صفحة 5)

وفي باب أخبار عقلاء المجانين وأوصافهم يذكر خبراً عن أويس القرني رحمه الله:-

وهو أويس بن أبي أويس وهو أول من نسب إلى الجنون في الإسلام والمعروف من حديثه ما وجدته في كتاب جدّي الحسن بن جعفر أن السريّ بن الفضيل بن عياض. أخبرنا محمد قال:... نادى عمر بن الخطاب وهو على المنبر بمنى: يا أهل قَرَنَ. فقام مشايخ فقالوا: ها نحن يا أمير المؤمنين، ليس فينا من اسمه أويس إلا مجنون يسكن القفار والرمال لا يألف ولا يؤلف. فقال: ذلك الذي أعنيه، إذا قدمتم إلى قَرَن فاطلبوه وبلّغوه سلامي وقولوا له غن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّرني بك وأمرني ان أقرأ عليك سلامه. قال: فعادوا إلى قرن وطلبوه فوجدوه في الرمال، فأبلغوه سلام عمر وسلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: عرَّفني أمير المؤمنين وشهَّر باسمي، السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم صل عليه وعلى آله. وهام على وجهه فلم يوقف له بعد ذلك على أثر دهراً، ثم عاد في أيام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مقاتلاً بين يديه فاستشهد في صفين أمامه فنظروا فإذا نيف وأربعون جراحةً من طعنة وضربة ورمية. (جلال الدين، 1396-1976، الصفحات 45-46)

2- كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي (597هـ):

أبو الفرج ابن الجوزي(الشيخُ الإمام العلامةُ، الحافظُ المُفسّر، شيخ الإسلام، مفخرُ العراقِ، جمالُ الدِّين، أبو الفرج عبد الرحمن بنُ عليّ بنِ محمدِ بنِ عليّ ابنِ عُبيدِ الله بن عبد الله بن حماديّ بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم... القُرشيُّ التَّيْمِيُّ، البكريُ، البغداديُّ، الحنبليُّ، الواعظُ، صاحب التصانيف ... لم يرحل في الحديث، لكنه عنده (مسند الإمام أحمد)و(الطبقات) لابن سعد، و(تاريخ الخطيب) وأشياء عالية، و(الصحيحان)، والسنن الأربعة، و(الحِلْية)وعدة تواليف وأجزاء يُخَرِّج منها).

من ترجمة ابن الجوزي يتبين أنه عالمَ دينٍ وراويةَ حديثٍ وحافظ ومفسر أي إنه من طبقات المفسرين المشهورين ويصفه الذهبي بصفاتٍ عديدة تتعلق بالشكل والعلم والاسلوب يقول:

(وكان رأساً في التذكيرِ بلا مُدَافعةٍ، يقولُ النظمَ الرائقَ، والنثرَ الفائقَ بديهاً، ويُسهبُ، ويُعجِبُ، ويُطرِبُ، ويُطنِبُ، لم يأتِ قبلَهُ ولا بعدهُ مثلهُ، فهو حاملُ لواءِ الوعظِ، والقَيِّم بفنونهِ، مع الشكلِ الحسنِ، والصوتِ الطيّب، والوقع في النفوسِ، وحُسنِ السيرةِ، وكان بحراً في التفسير، علَّامةً في السِّيَرِ والتاريخ، موصوفاً بحسنِ الحديثِ، ومعرفةِ فنونهِ، فقيهاً، عليماً بالإجماعِ والاختلافِ، جيد المشاركة في الطبِ، ذا تفنُّنٍ وفهمٍ وذكاءٍ وحفظٍ واستحضارٍ، واكبابٍ على الجمعِ والتصنيفِ...). (البغدادي، صفحة 145)

وعالمٌ وفقيه ومحدثٌ مثل ابن الجوزي كتب في مختلف الفنون والعلوم لا بد أن يخوض في التأليف في الجانب الهامشي من المجتمع في ذلك العصر فهو بعد أن جمع (أخبار الأذكياء) ألف كتاب جمع فيه أخبار الحمقى والمغفلين ويذكر ابن الجوزي إنه جمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أسباب:

الأول: أن العاقل إذا سمع أخبارهم عرف قدر ما وهِبَ له مما حرموه، فشكر.

الثاني: إن ذِكرْ المغفلين يحث المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة.

الثالث: أن يرّوح الإنسان قلبه بالنظر في سير هؤلاء المبخوسين حظوظاً يوم القسمة، فأن النفس تمل من الدؤوب في الجد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو.

ومن هذا يتضح التمييز بين المركز والهامش. إذ فرّقَ ابن الجوزي بين المركز والهامش تفريقاً واضحاً بقولهِ(المغفل، المتيقظ) (الجد، اللهو) (الملل، الراحة) إذ تتسم حياة علية القوم بالجد والملل أما المبخوسين حظوظاً كما عبر عنهم تتسم حياتهم باللهو والراحة سواء كان ابن الجوزي واعياً لهذه القضية أم لا.

وتحدث ابن الجوزي في مقدمة الكتاب عن المُلح واللهو وفائدتها للقلوب وإن القلوب تَمْلُ كما تَمْلُ الأبدان. (النيسابوري، الصفحات 8-9)

قسم ابن الجوزي الكتاب إلى أربعة وعشرين باباً فعرّف الحماقةَ وشرح معناها وذكرَ أسماء الحمقى وبين صفاتهم والأبواب هي كالآتي:

الباب الأول: في ذكر الحماقةِ ومعناها.

الباب الثاني: في بيان الحمق غريزة.

الباب الثالث: في ذكرِ اختلاف الناس في الحمق.

الباب الرابع: في ذكر أسماء الأحمق.

إلى الباب التاسع هو في الحمقى ومن الباب العاشر إلى الباب الرابع والعشرون في ذكر المغفلين وأخبارهم.

وقد قال في :(معنى الحمق والتغفيل: هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود جميعاً، فالأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد ورؤيته في الوصال إلى الغرض غير صحيحة)

وقف ابن الجوزي عند هذه الطبقة الهامشية وقوفاً طويلاً وقد نعتهم بصفاتٍ شتى وبيّنَ أن الحمقَ غريزة يقول:

(عن أبي يوسف القاضي قال: ثلاث؛ صدِّق باثنتين ولا تصدِّق بواحدة: إن قيل لك إن رجلاً كان معك فتوارى خلف حائط فمات فصدِّق، وإن قيل لك إنّ رجلاً فقيراً خرجَ إلى بلدٍ فاستفاد مالاً فصدِّق، وإن قيل لك إنَّ أحمق خرج إلى بلدٍ فاستفاد عقلاً فلا تصدِّق) (ديوان لبيد، 1414-1993، صفحة 231)

عند النظر إلى هذا الخبر بما فيه من العجائبية والغرائبية يبين صفة مهمة للأحمق وهو إنه لا يملكُ عقلاً وإن المتلقي يصدق كل شيء مثل شخص يتوارى خلف جدار فيموت. إلا أن شخصاً أحمق خرج إلى بلدٍ ليستفيد عقلاً هذا أمرٌ لا يمكن تصديقهُ وإن الأحمق ليس له دواء.

وبعدها يفصل في صفات الأحمق ويرى إنها تنقسم إلى قسمين:

(أحدهما من حيث الصورة، والثاني من حيث الخصال والأفعال قال الحكماء: إذا كان الرأس صغيراً رديء الشكل دلَّ على رداءة في هيئة الدماغ.

قال جالينوس: لا يخلو صغر الرأس ابتة من دلالة على رداءة هيئة الدماغ. وإذا قصرت الرقبة دلت على ضعف الدماغ وقلتهُ) (النيسابوري، صفحة 39)

القسم الثاني: وهو المتعلق بالخصال والأفعال:

(قال عمر بن عبد العزيز: ما عدمت من الأحمق فلن تعدم خلتين، سرعة الجواب، وكثرة الالتفات)

ويذكر ابن الجوزي أهمية العلم لحماية العقل من الحمق واكتساب المعرفة له دور كبير في ابتعاد الانسان عن الحمق (أن من علامات الأحمق هي خلّوه من العلم أصلاً فأن العقل لابد أن يحرك إلى اكتساب شيء من العمل وإن قَلَّ، فإذا غلب السن ولم يحصل شيئاً من العلم دلَّ على الحمق)

ويقول ابن الجوزي في الحديث عن خصال الأحمق:

(ومن خصال الأحمق فرحه بالكذب من مدحه، وتأثره بتعظيمهِ، وإن كان غير مستحق لذلك)

وفي الباب التاسع جعله في ذكر أخبار جماعة من العقلاء صدرت عنهم أفعال الحمقى واصّروا عليها مستصوبين لها، فصاروا بذلك الإصرار حمقى ومغفلين.

ويذكر أن أول القوم هو ابليس فقد كان متعبداً مؤذناً للملائكة فظهر منه الحمق والغفلة ما يزيد على كل مغفل، فأنه لما رأى آدم مخلوقاً من طين أضمر في نفسهِ، لئن فضلت عليه لأهلكنه، ولئن فضل عليَّ لأعصينه. (المصدر السابق، الصفحات 94-95)

أما الباب العاشر من الكتاب في ذكر المغفلين من القراء والمصحفين وينقل ابن الجوزي خبراً عن القاضي المقدمي يقول:

(قرأ علينا عثمان بن أبي شيبة: ((جعل السقاية في رجل أخيه)) فقيل له ((في رحل أخيه)) فقال: تحت الجيم واحدة))

وينقل في هذا الباب الكثير من الأخبار لأولئك القراء المصحفين المغفلين وعلى الرغم من الخطأ الذي هم عليه قد وقف عندهم وقفة طويلة وبيّن أن لهم الكثير من الأخبار والنصوص التي وردت عنهم.

أما الباب الحادي عشر فجعله في ذكر المغفلين من رواة الحديث والمصحفين وفي هذا الباب ينقل الكثير من الأخبار التي في ذكر المغفلين الذين حرفوا أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

أما الباب الثاني عشر في ذكر المغفلين من الأمراء والولاة وكذلك الأبواب الأخرى فقد ذكر المغفلين القضاة، والمغفلين من الكتَّاب والحجَّاب، والمغفلين من المؤذنين. (بشار عواد معروف، الصفحات 365-366)

من الطريف في ذكر المغفلين من المؤذنين ينقل خبراً عن مؤذن يقول:

(قال بعضهم: رأيتُ مؤذناً يؤذن ثم عدا، فقات: إلى أين؟ فقال: أحب أن أعرف إلى أين يبلغ صوتي)

وكذلك ينقل أخبار المغفلين من الأئمة، والمغفلين من الأعراب، والمغفلين من المتحذلقين فيمن قصد الفصاحة والإعراب في كلامهِ، وذكر من قال شعراً من المغفلين، والمغفلين من القصاص وغيرهم.

2- كتاب أخبار الاذكياء لابن الجوزي:

ابن الجوزي بعد كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين) وضع باباً في ذكر طِرْف من فطن المتطفلين في كتاب (أخبار الأذكياء) وهذا يدل على شيوع ظاهرة الطفيليين في ذلك الوقت وتدل ايضاً على اهتمام الكتاب والمؤلفين في هذه الطبقة الهامشية. (المصدر السابق، صفحة 367)

وافتتح ابن الجوزي هذا الباب بذكر أقوال في الطفيليين لعلماءٍ مثل الأَصمعيُّ، وأبو عبيدة، وعبد الله بن مسعود، وابن قتيبة، وغيرهم.

(قال الأصمعيُّ: الطفيليُّ الداخلُ على القوم من غير أن يُدْعَى، مأخَوذٌ من الطَّفَل، وهو إقبال اللَّيل على النَّهار بظلمَتهِ وأرادوا ان أَمْرَه يُظْلِمُ على القومِ، فلا يدرُون من دعاه)

وكتاب أخبار الاذكياء وهو كتاب يحتوي على مجموعة من النوادر والأخبار للعرب والأمم السابقة وغيرها من التصنيفات التي وضعها ابن الجوزي في كتابهِ وجمع ابن الجوزي هذه الطرائف القائمة على روح الدعابة والفكاهة وايضاً على مخاطبة العقل. (الحافظ جمال الدين، 1410-1990، الصفحات 13-14)

قام ابن الجوزي بتقسيم كتاب الأذكياء إلى ثلاثة وثلاثين باباً، كل باب يحتوي على فئة قد حددها مثل، ذكر العقل وماهية العقل، بيان معنى الذهن والفهم والذكاء، أخبار النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والصحابة، والخلفاء، القضاة، والنساء، عقلاء المجانين، والمتطفليين... وغيرها من التقسيمات. (المصدر السابق، صفحة 23)

ويقول ابن الجوزي في بيان الغرض من وضع الكتاب:-

(أحببتُ أَن أجمعَ كتاباً في أخبار الأذكياء الذين قويت فطنتُهم، وتوقَّد ذكاؤهم، لقُوَّة جوهريّة عقولهم وفي ذلك ثلاثة أغراض:

الأول: معرفةُ أقدارهمْ بذكر أَحوالهم.

الثاني: تلقيحُ أَلْباب السَّامعينَ إذا كان فيهم نوعُ استعداد لنيل تلك المرتبة...

والثالث: تأْديبُ المُعْجَبِ برأيهِ إذا سَمِعَ أخبارَ من يَعْسرُ عليه لَحَاقُه؛ والله الموفق)

وكذلك في حديثهِ عن الطفيليين ينقل قولاً لابن قتيبة :

(الضَّيْفَن الذي يَجِيءُ مع الضَّيْف ولم يُدْعَ)

والأخبار التي نقلها ابن الجوزي عن الطفيليين فيها من الفكاهة والتندر الشيء الكثير فضلاً عن اتصافهم بالحيلة والفطنة والذكاء أيضاً:

(قال: وجاءَ بُنَانُ إلى وليمة، فأُغلق الباب دونه، فاكترى سُلَّماً فوضعه على حائط الرجل، فأشرفَ على عيال الرجل وبناتهِ، فقال له الرجل: يا هذا: أما تخاف الله؟ رأيتَ أهلي وبناتي؛ فقال: يا شيخُ! (لقد علِمْتَ مَالَنَا في بناتِكَ مِنْ حقٍّ وإنك لَتَعْلَمُ ما نُرِيد). (ابن الجوزي، صفحة 24)

وأيضاً ينقل ابن الجوزي أقوالاً للجاحظ والمبرد وغيرهم وهذا يدل على أن هذه الطبقة قد ظهرت في وقت سابق لكنها انتشرت وأصبحت تُوضع لها المؤلفات وأصبح لها شأن في التأليف عندما شاعت وانتشرت في العصر العباسي وانتقل الخطاب من السلطة إلى العامة ومن المركز إلى الهامش وإلى العناية بطبقات المجتمع الدنيا الهامشية.

3- التذكرة الحَمدُونيَّة ابن حمدون:

ومن النصوص التراثية التي تناولت موضوع الطفيليين هو كتاب التذكرة الحمدونية لابن حمدون؛ وضع ابن حمدون باباً للحديث عن الطفيليين بعنوان (في المؤاكلة والنَهم والتطفل وأخبار الأكلة والمآكل)

(ابن حمدون : ابو المعالي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن حمدون الكاتب الملقب كافي الكفاة بهاء الدين البغدادي؛ كان فاضلاً ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة، ومن بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر، وسمع أبو المعالي من أبي القاسم إسماعيل بن الفضل الجرجاني، وصنف (التذكرة) وهو من أحسن المجاميع، يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله) (المصدر السابق، صفحة 30)

لقد تحدث المصنف عن منهجه في تأليف كتابه في المقدمة فقال:

(هذا كتاب جمعته من نتائج الأفكار، وطرف الأخبار والآثار، ونظمت فيه فريد النثر ودرره، وضمنته مختار الشعر ومحبَّره، وأودعته غُرَرَ البلاغةِ وعيونَها، وأبكار القرائحِ وَعُونَها، وبدائع الحِكَمِ وفنونَها، وغرائبَ الأحاديثِ وشجونَها، حين بُذِّل الصفو بالكدر، وغيرت الأيام الغِيَرَ، وفَسدَ الزمانُ، وخان الإخوان، وأوحش الأنيس، وخيف الجليس، وصار مكروه العزلَةِ مندوباً، ومأثورُ الخلطة محظوراً...)

ويستمر في تبيان منهجه قائلاً:

(وشرَّفت كلَّ بابٍ بان بدأته بآيٍ من كتاب الله سبحانه وتعالى، واثر من رسولهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وقدَّمتُ أمامه تحميداً يكون مشيراً إلى معناه، وطليعةً لمقصدهِ ومغزاه، وختمه بطرفٍ من نوادرهِ، ومُلح من غرائبهِ، ليستريح لها اللغِبُ الطليح من كَلال الحَدّ)

ويتخذ ابن حمدون منهجاً وسطاً دون الاسهاب الممل وبعيد عن الاختصار المُخِلّ:

(وهو مَصروفٌ عن الإسهاب المملّ إذا كان مطيّة العثار والإرداء، ومصدوفٌ عن الاختصار المُخِلّ فإنه مَظِنّة الخيبة والإكداء، وهما طرفان مذمومٌ بهما الإفراط، وخير الأمور الأوساط)

ورتب ابن حمدون تذكرته في خمسين باباً في كل باب فصول:

(ورتبته في خمسين باباً؛ يجمع كل باب فيها فصول متقاربة، ومعاني متناسبة، ليقربَ على متصفّحهِ ما يريد انتزاعه بمعرفةِ مكانه، ويسرعَ إلى ملتمسهِ بعلم مظانّه، وابتدأته بالمواعظ والآداب الدينية، وختمته بالأدعية المستحبّة المروية)والذي يهمنا من هذا الكتاب والمؤلف الواسع هو الباب السادس والأربعون والذي يدخل في دراستنا عن التهميش والمهمشين.

طرح ابن خلدون هذه الحكايات عن الطفيليين بأسلوب فكاهي يحاكي الواقع:-

(إن الحكاية الفكاهية هي التي تحاكي الواقع، ولكن بطريقةٍ فكاهية هدفها الإمتاع والتسلية. وقد تناثرت هذه الحكايات في كتب التراث العربي القديم، ومن بينها كتاب التذكرة كونه أحد الكتب الأدبية التي تشكل مدونة موسوعية) (جمال الدين ابو فرج ، 1424-2003، صفحة 238)

قسم ابن خلدون الباب السادس والأربعون إلى ستة فصول:

الفصل الأول: آداب الأكل والمُؤاكلةِ:

افتتح الباب بآي من القرآن الكريم كما بيّن في منهجهِ والآيات تكون قريبة من عنوان الباب كما في أول الباب

قال تعالى ((ياأيها الذين آمنوا كُلوا من طيباتِ ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إيَّاه تعبدون))

وبعدها ينقل أحاديث للرسول والأنبياء والأئمة والصحابة.

الفصل الثاني: الاقتصاد في المطاعمِ والعفةُ عنها كذلك يفتتح الفصل بآي من الذكر الحكيم وقصص وأخبار للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه. (المصدر السابق ، صفحة 118)

الفصل الثالث: في النُّهْمةِ والجَشعَ وأخبار الأَكَلَةِ.

الفصل الرابع: في التطفُّلِ وأَخبار الطَّفَيْليين.

بدأ الفصل ببيان معنى لفظ الطفيلي وأشهر من نُسب إليه هذا الاسم وينقل أَخباراً وقصص لشخصياتٍ مشهورة بالتطفل وهو (بَنان الطفيليُّ)

ومن الأخبار التي يسردها ابن حمدون عن الطفيليين يقول:

(نظر طفيليٌ إلى قَوْمٍ ذاهبين في وَجْهٍ، فلم يشك أَنَّهم يذهبون إلى وليمةٍ. فقام وتَبِعَهُم، فإذا هُم شُعراءُ قد قصدوا بابَ السلطانِ بمدائحَ لهم. فلما أَنْشَدَ كل واحد منهم شِعْرَهُ وأخذ جائزتَه، ولم يبقَ إلا الطفيليُ وهو جالسٌ ساكتٌ، قيل: أَنْشِد، قال: لستُ بشاعرٍ. قالوا: فَمنْ أَنْتَ؟ قال: من الغاوين الذين قال الله تعالى فيهم ((والشُّعراءُ يَتَّبعُهم الغاوون)) فضحك الممدوح وأمرَ له بمِثْلِ جائزةِ الشعراء)

يتضح من هذا الخبر عن الطفيلي إن الطفيليين كانوا يتمتعون بالحيلة والاحتيال وايضاً بمعرفةٍ بالقرآن الكريم وكانوا يستعملون النصوص القرآنية بأسلوب فكاهي لا يخلو من دهاء وذكاء. (سورة هود، صفحة اية79)

(أما ابن خلدون فقد منح حكاياتهِ الفكاهية أهمية لا تقل عن تلك التي منحها للأنواع الأخرى، لكن ما يميز هذا النوع من الحكايات هو الأسلوب العفوي أو الطريقة العفوية التي ذكر بها تلك الحكايات. ولكننا قد وجدنا أن تلك العفوية لم تكن اعتباطية أبداً، فقد كان على يقين تام بأن هذه العفوية هي التي تجذب المتلقي الذي يحاول ايقاظه ولو بطريقة فكاهية، كي لا ينفر منه ويتخذ موقفاً عدائياً تجاهه قد يذهب ضحيته)

الفصل الخامس: في أَوصافِ الأَطعمةِ وفُنونها وهنا يذكر الأصناف ويستشهد بأبياتٍ شعرية.

والفصل السادس: وهو الفصل الذي ختم به هذا الباب وهو (نوادر هذا الباب) وفيه ينقل نوادر لطفيليين ويختم هذا الفصل بأسماء هزلية وضعها الطفيليون والصوفية للأَطعمة وآلتها وما يتبعها. (ابن الجوزي، صفحة 29)

النتائج :

١- إن التأليف في نسق الهامش أخذ أبعاداً كثيرة ومساحة كبيرة في التراث العربي دللت عليه هذه الدراسة. فوجدنا هناك دراسة في البعد الاجتماعي والبعد العقدي.

٢- نتيجة لتطورات العصور ظهرت لنا مجموعة من هوامش المجتمع وعليه تنوع التأليف في هذه الأنواع المجتمعية.

٣-بمتابعة التآليف التي تناولت الهامش في التراث العربي وجدنا أن التأليف في طبقة البخلاء والطفيليين كانت هي الأكثر شيوعاً ولهذا أسبابها فالظاهرة نشأت في العصر العباسي وتناولها الكتاب في العصر نفسه لتوفر دواعي التأليف من جهة ولأنها شكلت ظاهرة اجتماعية مهيمنة في ذلك ومثل هذا الكلام ينطبق على الطفيليين.

٤- الخوارج يمثلون هامشاً تناولته التآليف بوصفهم يمثلون تقاطعاً مع السلطة السياسية من جهة والسلطة الدينية والعقدية من جهة ثانية لكنهم في الوقت نفسه يمثلون هيمنة على صعيد الاستشهاد اللغوي ولهذا وجدنا أن كتب اللغة تترجم لهم وتستشهد بنصوصهم وبالتالي تحولوا من هامش طبقي إلى مركز في التلقي.

٥- لم نتناول الصعاليك في هذه الدراسة بوصفهم هامش لأن هذا البحث جزء من اطروحة دكتوراه تعكف الباحثة على الخوض في أخبارهم وسيكون مدار الحديث في موضع آخر .

المصادر والمراجع:

ابن عربي،. (1998). *لوازم الحب الالهي، تحقيق موفق فوزي الجبر،، الطبعة الاولى،*. سورية ،دمشق: دار معبد للطباعة والنشر، دار النمير.

الأسد ،د.ناصر الدين ،. (1969). *مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية*. ،القاهرة–مصر: دار المعارف.

اسماعيل, د. عز الدين. (د.ت). *الشعر العربي المعاصر،*. , القاهرة – مصر, ط3: دار الفكر العربي.

التهانوي. (د.ت). *كشاف اصطلاحات الفنون*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

التوحيدي، أبو حيان التوحيدي،. (2023). *الإمتاع والمؤانسة،*. القاهرة_ مصر: آفاق للنشر والتوزيع.

الجاحظ،. (1987). *المحاسن والاضداد،*. بيروت، : طبعة دار و مكتبة الهلال.

جواد ، ختام. (2016). *التداولية أصولها اتجاهاتها*. عمان.

الجوزي ، ابن القيم. (2013). *زاد المسير في علم التفسير*. المكتب الإسلامي، دار ابن حزم.

الذويخ ، أسعد فهد. (2009). *صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى حماية العصر العباسي*. ،عالم الكتب الحديث.

عباس، إحسان . (د.ت). *ديوان الخوارج، تحقيق إحسان عباس،.* ، بيروت – لبنان: دار الثقافة للنشر ..

عسّاف ، ساسين ،. (1982). *الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس* . والنشر ، بيروت ، ط1 ، : المؤسسة الجامعية للدراسات.

العسكري، أبو هلال . (2005). *الفروق اللغوية.* بيروت: دار الكتب العلمية.

نصار ، ابتسام مرهون ، و حلاوي، ناصر . (2014). *محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ،.* ، منشورات العطار، ط1،.

Sources and references:

-Abu Hilal Al-Askari. (2005). Linguistic differences. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

Khitam Jawad. (2016). Trading, its origins and trends. Oman.

,Dr. Ezzedine Ismail. (d.t.). Contemporary Arabic poetry. , Cairo - Egypt, 3rd edition: Dar Al-Fikr Al-Arabi.

Sassine Assaf,. (1982). The poetic image and its models in Abu Nawas's creativity. Publishing, Beirut, 1st edition: University Foundation for Studies.

Dr. Nasser Al-Din Al-Assad,. (1969). Sources of pre-Islamic poetry and their historical value. Cairo, Egypt: Dar Al Maaref.

Ibtisam Marhoon Nassar and Nasser Halawi. (2014). Lectures on the history of Arab criticism. Al-Attar Publications, 1st edition.

Ibn al-Qayyim al-Jawzi. (2013). Increased progress in the science of interpretation. Islamic Office, Dar Ibn Hazm.

Ibn Arabi,. (1998). Supplies of Divine Love, edited by Muwaffaq Fawzi Al-Jabr, first edition. Syria, Damascus: Maabad Printing and Publishing House, Dar Al-Numair.

Abu Hayyan Al-Tawhidi,. (2023). Enjoyment and sociability. Cairo_Egypt: Afaq for Publishing and Distribution.

Ihsan Abbas,. (d.t.). Diwan al-Khawarij, edited by Ihsan Abbas. Beirut - Lebanon: House of Culture for Publishing.

Asaad Fahd Al-Dhuwaikh. (2009). The image of the other in Arabic poetry from the Umayyad era until the protection of the Abbasid era. The modern world of books.

Ismail Abdel Haq.(1997) .

Thanoi. (d.t.). Arts terminology explorer. Cairo: Al-Khanji Library.

Al-Jahiz:. (1987). Advantages and opposites. Beirut: Al-Hilal House and Library Edition.